



## سبيل الانسان والطبيعة

للككتور احمد زكي

أستاذ الكيمياء بكلية العلوم

الطبيعة تسير في كل ظواهرها وحوادثها على قوانين مرسومة منذ الأزل. وستسير فيما يظهر على تلك القوانين الموضوعة إلى الأبد.

وقد كان الانسان القديم يعجب بهذه الظواهر. وتأخذه الرهبة، ويلبسه الاجلال والاكبار عند اعتبار تلك الحوادث، ولكن لم يحفز شيء إلى تفهمها، ولم تجش في نفسه رغبة إلى تعرف أسبابها، لأنها كانت تتألف على عقله فرادى وأشتاتاً ثم تركم فيه على غير نظام كما تركم المتاع عند تاجر الأمتعة القديمة، فالحذاء البالي إلى جانب المرأة الصقيلة، والكتاب القيم بجوار قدر الطعام. وكان عقله صعباً، وعقله قد يصور في الشيخ، والعقل قد يشيخ في الصبي، وعقل الصبي في القرن العشرين قد يزيد على عقل الشيخ في قرون الحياة الأولى، وعقل وعقلك اليوم ليسا من خلق هذا الجيل، بل هما تراث الأجيال جاء دورى ودورك في احتوائه، وقد أورثه أعقاب من بعدى وتورثه أعقابك من بعدك وفيه نقص، وقد أورثه وتورثه وفيه زيادة، ولكن لا شك أن ما يورثه جيل جيلاً من ذلك يزيد بمر الأجيال بزيادة التجارب وتسلل الثقافات وتتابع المدينيات.

ولما تمتع الذهن الانساني أخذ يدرك بين ظواهر الكون العديدة أشباها برغم تركها، وبدأ يصير بين الأشياء منها وجوهاً للتخلاف برغم خفاها وتمشرها، وأخذ يرتب ما دخل عقله شيئاً فيقرب بين المعارفات، ويباعد بين المتناكرات، وأصبح ما يدخل عقله يقصد من فرده إلى مكانه من ذلك

النظام. وما يستأذن على رأسه يؤذن له ولكن من باب دخل فيه من قبله أجناسه. وهذا العقل المنظم، وبما فيه من وحدات متألفة متخالفة مترابطة، أخذنا نحن بني الانسان نتفهم الطبيعة، فاستكشفنا أن لها قوانين، وأن لها أمثلة تنسج عليها في كل ما تصنع، ونماذج تحتفظها في كل ما تأنيه.

وقد يتراعى لنا نحن بني العدم والفتاء أن الطبيعة تشذ عن أمثلها أحياناً. ونخرج عن مألوفها أطواراً، وما في الطبيعة من شذوذ. ولا هي تخرج عن مألوف، وإنما هو سوء فهم منا لمألوفها، وقصور منا عن ادراك نواميسها، وما ذلك القانون الذى شذت عنه، ولا الناموس الذى خرجت عليه، إلا من خلقنا نحن، فنحن الآلى أوجدناه، ونحن الذين فرضناه وقصرنا أطرافه. فلما لم نجد مطرداً سمينا ذلك شذوذاً، ولما لم نجد القاعدة التى ابتدعناها متبعة أسميناً نواضعها استثناء.

على أننا أثناء ذلك لم نفقد حبنا للنفع، ولم تنقص فينا الرغبة في الفائدة. فكنا لا نكشف سرّاً ناقصاً من أسرار الطبيعة الا ونسأل كيف ننتفع به في بيوتنا. وكنا لا نزيح الستار عن عجيبة من عجائب الكون لم نفهمها كل الفهم حتى نسأل كيف نستفيد منها في مدتنا وأسفارنا، وما ضرنا ونحن بنو المادة ان تكون قوانين الطبيعة ناقصة مادامنا نستهدى بها إلى البخار يحملنا من بلد إلى بلد؟ وما ضرنا ونحن بنو النفع أن تكون لنواميس الطبيعة استثناءات مادامنا نصنع بعونها الطوائف من المعدن والخشب ونفنى المواخر تشق البحر ولا تمأ بما فيه من أمواج وأنواء؟ ونجحنا في هذا السبيل مجاحاً زاد أقدامنا فيه ثباتاً. فبدل أن كانت الغاية مقصورة على فهم الكون ودرس طبائعه، وقبل أن نفهم الكون وتدرس طبائعه فنشتت من ذلك، تطلعا إلى عاكاة الطبيعة، إلى إنتاج ما تنتج، إلى خلق ما تخلق، إلى التحريك بمثل ما

محرك ، والتسكين بمنزلة ما تسكن ، وعمدنا الى مناخضها كذلك الى إماتة ما يحيى ، وإلى إحياء ما تميت ، الى تحريك ما تسكن وتسكين ما تحرك ، وإلى توجيهها الى ما أرادت والى ما لم ترد هذه غاية ابن آدم : يريد أن يخلق وهو مخلوق ، ويحل الوثاق عن قوى للطبيعة هو بها موثوق ، ويسيطر على عالم قليل ما هو فيه ، وكان الناس يرون في ذلك افتئاتاً من المخلوق على الخالق ، فأصبحوا يرون فيه تعجيداً من المخلوق للخالق ، وكانوا يرون فيه زندقة ومروقاً وعصياناً ، فأصبحوا يرون فيه إيماناً وتخشعاً وتعبداً ، وتبينوا أن سر الانسان من سر الله ، وأن ما يأتيه الانسان إنما يصدر عن فطرة وفطرة هي لله ومن الله حاول الانسان أن يقلد الطبيعة في أمور عدة ، فبلغ غاية في البعض ، وفات الغاية في البعض ، وخاب في كثير من الأمور .

رأى النبات يخرج ألواناً تشبه ما في الطيف من ألوان ويخرج ألواناً تزيد على ما في الطيف من ألوان ، ولكن النبات بطيء في عمله ، والإنسان خلق من عجل ، والنبات لا يوجد من ألوانه إلا بالزر البسيط ، والإنسان يريد منها ألواناً كثيرة ، والنبات يوجد منها بعدد على كثرته قليل ، والإنسان يريد منها عدداً كثيراً لا حد لها ولا حصر ، فأخذ يبحث ويدأب ويصمد ويصابر الجليل بعد الجليل حتى أتى من الأصابع بما تحسده الطبيعة عليه ، أم لعل الأوفى أن نقول بما تقتضيه الطبيعة به ، فالإنسان بعضها ، أتى من الأصابع بما يطابق أصابع النبات أحياناً وبشابهها أحياناً ، وأتى منها بما يفوقها زهواً وإشراقاً ، وأتى منها بعدد يكاد يحل عن الحصر ويخلط بينها فأتى بكل لون وقعت عليه أعين الأحياء ، وهم أبقاظ صاحرون ، وكل لون وقعت عليه أعينهم وهم ينام يحلون ، أتى بالوان تزي بالوان الربيع في إبانها ، وتستحرق ما ينزل به وحى الشاعر عند صفاء قريحته وفي سمو خياله ، ورأى الانسان الطائر طيراً فإراد أن يقلده في طيرانه ، رآه طليقاً من قيود الأرض مالكاً اعتقه الهواء ، يسرح في أبعاد ثلاثة من طول وعرض وارتفاع ، فأراد أن يكسر قيده ويستعير للهواء أفعى ويريد على بقى هذا السطح الأرضي بعداً ثالثاً ، وبعد خفية تلوها خفية ، وبعد نفس تتبعها الى خالفها أنفس ، ولدت الطائرات ، ولم تولد كالإنسان في ساعة ولا يوم



المصباح المبدى

ولاعام ، وأما يوم ميلادها كان حفة من الزمان ، فلم تكن بتاج ذم ، ولكن بتاج أذهان ، وأصبح أنسان هذا العصر يطير في الجو كيف شاء ، وحيث شاء ، وحصد ثمر اليوم حصداً حصداً في سيله رقاب بني الأسر .

ومن أحدث الأمثلة في تقليد الانسان للطبيعة ما جاز به الأبناء منذ قريب بما يحق لنا أن نسميه ثورة قصد العلم اليها في الأضياء والضياء ، كنا في الأزمنة الأولى نقنع في حلك الليل بالنص ، القليل يخرج علينا من حريق الخشب مع دخان ودخان ، وحدثنا القدر لما هدانا الى الزيوت والشموع شعاعاً على هوانا ونظفنا على هوانا ، وزدنا للقدر حمداً لما تيات لنا مدخنة من رجاج وضعناها على المصباح فوقنا سخامه ، وجاء المصباح الكهربائي فوجنا له حيناً نحسبه من عمل السحرة أو صنع الشياطين ، ولما اطمأننا اليه زدناه على السنين شدة وزدناه جمالا ، وكنا نحسب ان هذا غاية المني ومنتهى الأمل ، ولكن الانسان بعد أن وجم لهذا المخلوق الجديد مستغرباً معتجلاً ، وبعد أن ربهو غمماً فخوراً زاهياً ، وجد أخيراً أنه لم يبلغ به هواه ، ونظر الى الشمس في ياض ضيائها وبارع سناها فانبسمت له أو ابتسمت منه ، فوجد فيها الغاية التي ليس من بعدها غاية ، وتبين فيها آية الطبيعة الكبرى والمثل الذي تضاهل بحواره الأمثال ، فرجع يقسم ألا يفترقه عزم حتى يأتي بمنزل هذا السنا والضياء .

وجاءت الشائر في الأشهر القريبة الماضية بأنه نجح في هذا أو كاد ، وأنه استعاض عن المصباح الكهربائي الأثرى - أو الذي يصصح عن قريب أثرياً - بمصباح جديد لا قيل فيه ، وإنما ملكت زجاجة يخرج من غاز ينسب خاصة تمر فيه الكهرباء فيخرج منه ضياء يشبه ضياء الشمس في امرين : في نضوع ضيائه وفي انتظام توزيعه ، وهو فوق ذلك لا يتكلف من الكهرباء إلا حصى ما كان يتكلف المصباح القديم - أو الذي نرجوا أن نسميه في القريب العاجل قديماً - وهم يعدون أنه لا يمضي شهر حتى تضاء أميال من الطرق بحوار لندن هذا الضياء الجديد ، وهم يعدون أنه لن تمضي سوات حتى يستعاض بمصابيح الشوارع وما يحملها من عمد طويلة بأنابيب متواصلة من هذا الضياء ، تمد على الأرض على جانب الطرقات ، فلا يكون ثمة حاجة الى انارة العربات والسيارات في الليل أو في النهار الذي صنعه الإنسان .